﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٠﴾

[التّوبة: 90]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين المؤمنين الباذلين أنفسهم في سبيل الله، ومآل المنافقين المخلّفين من الأعراب

لمَّا شرح أحوال المنافقين الّذين كانُوا في المدينة، بيّن في هذه الآية أحوال المنافقين من الأعراب. فقال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ الآية، فبان أنّ موقفهم على غرار ما فعله منافقو المدينة. ثم إنّه بعد أن قابل بين حال المنافقين وحال الرّسول ﷺ والمؤمنين في الآيات السَّابقة؛ بيّن هنا ما فعله المُعذِّرون من الأعراب، وهم يطلبون الإذن من رسول الله لينصرفوا عن صحبته؛ ظانّين أنّ هذا هو الفلاح، وما ذاك إلا كفرًا منهم وانتفاءً للوعي والفقه عن قلوبهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾: العُذْرُ: تحرِّي الإنسان ما يمحو به ذنوبه، والمُعْذِرُ: مَن يرى أنّ له عُذْرًا ولا عُذْرَ له[1]. والمُعذِّرون: من (عُذر في الأمر): إذا قصّر فيه، وتوانى ولم يَجِد، وحقيقته أنْ يُوهم أنَّ له عذرًا فيما يفعل ولا عذر له، ويُحتمل أن يكون من (اعتذر)، والأصل المعتذِرون، وقرأ يعقوب ﴿ٱلۡمُعۡذِرُونَ﴾ بالتَّخفيف[2]، ورُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما فهو من: (أعذر) إذا كان له عُذر. و﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ بالتَّشديد من (تعذَّر) بمعنى: اعتذر[3].

2) ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾: الأعراب هم سكان البوادي خاصَّة، والنّسبة

(1) الرّاغب، المفردات: (عذر).
(2) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/280.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/344.

إليهم (أعرابي) فهو اسم جنس[1]، والعَرَبِيُّ: المُفصِح[2]. ورجل أعرابيٌّ بالألف إذا كان بدويًّا صاحب نُجْعَةٍ وارْتِيادٍ لِلكَلَأ، وتتبُّعٍ لمساقط الغيث، وسواء كان من العَرب أو من مواليهم، والأعرابيُّ إذا قيل له: يا عربيّ؛ فرح بذلك وهشَّ له، والعربيُّ إذا قيل له: يا أعرابيّ؛ غضب له[3].

3) ﴿لِيُؤْذَنَ﴾: جذر الكلمة هو (أذن)؛ "ويُسْتَعار لِمَن كَثُرَ استماعه وقَولُه لما يُسْمَعُ، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ [التّوبة: 61]؛ أي: استماعه لما يعود بخيرٍ لكم"[4]. "وأذِن له في الشَّيءِ بالكسر إِذَنًا، وأذِنَ بمعنى: عَلِمَ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [البقرة: 279]، وأَذِنَ له: استمع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: 2]؛ وفي الحديث: «ما أذن اللّه لشيء كأَذَنِه لِنبيٍّ يتغنَّى بالقرآن يجهر به»[5]"[6].

4) ﴿وَقَعَدَ﴾: قَعَد خلاف قام[7]، والقَعْدةُ: المَرَّةُ الواحدة. والقَعَد: القَوْمُ الّذين لا ديوان لهم. والمُقْعَدُ والمُقْعَدَةُ اللّذان لا يطيقانِ المَشْيَ[8]. ومعنى (قعد) هنا: كلّ ما يُوصف به الفَردُ والقَومُ من السّلب والتّخلّف؛ وفي الآية معنى الإعراض عن الجهاد مع الرّسول ﷺ واختياره والإصرار عليه.

5) ﴿كَذَبُواْ﴾: جذر الكلمة هو (كذب)؛ تقول: كَذَبَك[9]كَذِبًا، أي: لم يَصْدُقْكَ، وقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ [النّبأ: 35]"[10]. والتَّكاذُبُ ضدُّ التَّصادُق[11].

6) ﴿سَيُصِيبُ﴾: جذر الكلمة هو (صوب)؛ الإصابة: مصدر أصاب، بمعنى: لم يخطئ، تقول: أصاب السَّهمُ الرَّميّة: لم يُخطئها، وصوَّبَ السَّهم: وجَّهه وسدَّده، وتأتي

(1) الزّبيديّ، تاج العروس، والرّاغب، المفردات: (عرب).
(2) الرّاغب، المفردات: (عرب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: 4/2468.
(4) الرّاغب، المفردات: (أذن).
(5) الخليل، العين، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (أذن).
(6) أحمد، مسند الإمام أحمد، باب مسند أبي هريرة، الحديث رقم: (9805)، 15/500.
(7) ابن سِيدَه، المُحكَم: (قعد).
(8) الخليل، العين: (قعد).
(9) الثّابت في المعاجم أنّ الفعل: (كذب) من باب: (ضرب)، فهو مفتوح العين في الماضي.
(10) الخليل، العين: (كذب).
(11) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (كذب).

(أصاب) بمعنى: أخذ، تقول: أصاب من المال[1]. والصَّواب: ضدُّ الخطأ، والمُصابُ: مفعول مَن أصابَتْهُ مصيبة[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

صورة أخرى من صور التّخاذُل والتّخلّف، وما يؤول إليه أصحابها من البوار والخسار

وجاء المُعذّرون من الأعراب إلى رسولِ الله ﷺ ليُؤذن لهم في التَّخلُّف عن الجهاد والقعود مع الخوالف، كما فعل المنافقون من أهل المدينة، ورضوا بالقعود عن المجيء إلى رسول الله ﷺ والجهاد معه، فوصفهم تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [التّوبة: 90]، فقد قالوا الكذب واعتذروا، وتعذّروا بلا عذرٍ. فهؤلاء سيُصيب الّذين كفروا منهم عذابٌ أليم؛ إذْ جحدوا توحيد الله ونبوَّة نبيه محمد ﷺ[3]. أو إنّ المُعذرين هنا طائفة من المؤمنين من أصحاب الأعذار، وليسوا منافقي الأعراب.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة (الواو): ﴿وَجَآءَ﴾، وأثرها في المعنى:

يفرز حرف الوصل، معنيَيْن متناقضيْن، كلاهما واردٌ

قوله: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ شروع في بيان أحوال منافقي الأعراب إثر بيان أحوال منافقي أهل المدينة[4]. و"عُطِفت جملة: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ على جملة ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ [التّوبة: 86]، وما بينهما اعتراض، فالمراد بالمُعذّرين: فريق من المؤمنين الصَّادقين من الأعراب، كما تدلّ عليه المقابلة بقوله: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ فتحقَّق عنصر الاتّصال وعنصر المغايرة، وعلى هذا المعنى فسَّر ابن عبّاس، ومجاهد، وكثيرٌ

(1) عبد المنعم، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، ص: 197.
(2) الرّازيّ، مختار الصّحاح، ص: 375.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/416.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/344.

وخالفهم قتادة"[1] فجعلهم المُعتذرين كذبًا، على أنّهم قومٌ آخرون غير الّذين قال فيهم: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾، فهم صنفٌ آخر من الكاذبين المُتخاذلين عن نصرة رسول الله ﷺ، فيتحقّق أيضًا بذلك عنصرا الاتّصال والمُغايرة.

سرّ اختيار لفظ ﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾:

من لطائف القرآن قبول لفظ (المعذِّرون)، معنيَيْن مُتناقضيْن

الاعتذار افتعال من باب ما استُعمل فيه مادة الافتعال للتكلّف في الفعل والتصرّف مثل الاكتساب والاختلاق. والعُذْر البيّنة والحالة الّتي يتنصَّل المُحتجُّ بها من تَبعة أو مَلام عند مَن يعتذر إليه. وصيغة ﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ من لطائف القرآن؛ إذْ شملت الَّذين صدقوا في العُذر والّذين كذبوا فيه. فإنْ كانوا المُحقِّين في العُذر فتقدير ﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾: أنّ أصله المعتذِرون، مِن اعتَذَرَ؛ أدغمت التّاء في الذّال لتقارُب المخرجيْن لقصد التّخفيف، وإن كانوا الكاذبين في عذرهم فتقديرُ ﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾: أنّه اسم فاعل مِن عَذَّر بمعنى: تكلّف العُذر. قال الأزهريُّ: ذهب إلى أنّهم الّذين يعتذرون بلا عُذر فـ(المُعَذَّر) بالتّشديد هو المُظهِر للعُذر اعتلالًا، وهو لا عُذر له[2].

توجيه قراءة (المُعذِرون):

المُعذِّرون هم الّذين جاءوا بعذرٍ ولم يُقصِّروا

في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾، قرأ يعقوب: (المُعْذِرُونَ) بسكون العين وكسر الذّال مخففةً[3] من (أعْذَر، يُعْذِر) كـ (أكْرَم، يُكْرِم)، وهم المبالِغون في العُذْرِ[4]. فـ (المُعْذِرُونَ) بالتّخفيف هم الّذين أعذَروا، أي: جاءوا بعُذرٍ، يُقال: أعذَرَ الرّجل، إذا جاء بعُذرٍ ولم يُقَصِّر[5]، وهم الكاذبون في العُذر[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/292.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/292.
(3) ابن الجزري، النّشر: 2/280.
(4) ابن عادل، اللُّباب: 10/168.
(5) الكرمانيّ، مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني، ص: 199.
(6) ابن عادل، اللُّباب: 10/169.

ومَنْ قَرَأَ ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ بتشديد الذّال فله وجهان: أحدهما: المتعذِّرون، أُدْغِمَتِ التَّاء في الذَّال، كأنَّهم يَعتَذرون، كأنَّ لهم عذرًا ولم يكن. وجائز أن يكون ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ الّذين تَوَهَّمُوا أنَّ لهم عُذرًا ولا عُذرَ لهم. والعربُ تقول للمُقَصِّر: مُعَذِّر[1]، وهي تحتمل وجهين: أن يكون وزنه (فعَّل) مضعّفًا، ومعنى التَّضعيف فيه التّكليف، والمعنى: أنّه توهَّم أنَّ لهُ عُذرًا، ولا عذر لهُ.

والثاني: أن يكون وزنه (افْتَعَل)، والأصلُ: (اعتذرَ)، فأدغمت التّاءُ في الذّال بأنْ قُلبت تاءُ الافتعال ذالًا، ونُقِلت حركتها إلى السَّاكن قبلها، وهو العين، ويدلُّ على هذا قراءةُ سعيد بن جُبير (المُعْتَذِرُونَ) على الأصل، وإليه ذهب الأخفشُ، والفرَّاءُ وأبو عُبيد، وأبو حاتم، والزَّجَّاجُ، وابن الأنباري، والاعتذار قد يكُون بالكذبِ، كما في قوله: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [التّوبة: 94]، وكان ذلك الاعتذارُ فاسدًا، لقوله: (لا تَعْتَذِرُوا)، وقد يكون بالصِّدقِ. فقراءة ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ بتشديد الذّال، من (تعذَّرَ) بمعنى اعْتذرَ[2]، فمحتملة؛ لأنْ يكونُوا صادقين، وأن يكُونُوا كاذبينَ، قال ابنُ عبَّاسٍ: هم الَّذين تخلَّفُوا بعذرٍ بإذن رسُول الله ﷺ وهو قول بعض المفسِّرين أيضًا، قال: ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾، كانوا صادقين؛ لأنَّه تعالى لمَّا ذكرهم قال بعدهم: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، فلمَّا ميَّزهم عن الكاذبين دلَّ على أنَّهم لَيْسُوا كاذبينَ[3].

معنى حرف الجرّ ﴿مِنَ﴾، ودلالته في سياق الجملة:

المعاني العديدة المُستفادة من حرف الجرِّ (مِن)، من مرامي البيان

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾، وفيه حرف الجرّ ﴿مِنَ﴾ هنا للتَّبعيض؛ لأنّ بعض المُعذّرين كانوا من الأعراب. أو هي

(1) الكرمانيّ، مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني، ص: 199.
(2) ابن عادل، اللُّباب: 10/168.
(3) ابن عادل، اللُّباب: 10/169.

لبيان الجنس؛ أي: جاء المُعذّرون من جنس الأعراب. وذكر الرَّضيُّ في شرحه على الكافية لبيان (من) الجنسيّة، قوله: نحو (أخذتُ عشرين من الدَّراهم)، فإذا أشرتَ بالدّراهم إلى دراهم معيّنة أكثر من عشرين فـ (من) مُبعّضة؛ لأنّ العشرين بعضها، وإذا كانت الدّراهم عشرين فهي مُبيّنة، لأنّك قصدت بالدّراهم الجنس[1]. وهذا المعنى يمكن رجعه إلى الابتداء أيضًا، كما يمكن رجعه إلى التّبعيض كما ذكر سيبويه[2].

إيثار لفظ ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾:

تُطلقُ الأعراب على أهل البوادي، على خلاف العرب التي هي لأهل الحَضَرِ من المدن والقرى. وقد ورد ذكرُهم في أكثر من موضع في القرآن الكريم، من ذلك قوله: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: 14]. ولعلّ آية الحُجُرات تأتي مفسِّرة لذكر الأعراب دون العرب في آية التّوبة، فالأعرابُ هم الّذين لمّا يدخل الإيمان في قلوبهم؛ وهذا هو الدّاعي لأنْ يكونوا من المُعذِّرين، فهم يأتون إلى رسول الله ﷺ يُقدِّمون الأعذار بأنواعها وأشكالها طلبًا للقعود عن الجهاد؛ خشيةَ القتل، وذلك دليلُ انتفاء الإيمان في القلوب.

ما يغلب على حال الأعراب، الغلظة والنّفاق، وشدّة الأخلاق

دلالة اللّام: ﴿لِيُؤۡذَنَ لَهُمُ﴾، وأثرها في المعنى:

اللّام في قوله: ﴿لِيُؤۡذَنَ لَهُمُ﴾ لام تعليل، والمعنى في الآية: جاء المعذّرون لكي يُؤذنَ لهم، فقد جاءوا لطلب الإذن فكانت هذه غايتهم، وأنّهم لا يريدون احتمالًا آخر، وهذا على خلاف الّذين سيأتي ذكرهم؛ إذ جاءوا رسول الله ﷺ ليحملهم ولكن لم يجدوا الحُملانَ عند رسول الله ﷺ.

غاية الأعراب، كانت التّخلّف عن القتال، فنالوا بذلك سوء المآل

(1) الرّضي، شرح الرّضي على الكافية: 2/357.
(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/68.

دلالة بناء الفعل للمفعول ﴿لِيُؤۡذَنَ﴾ في السّياق:

تنزيه الرَّسول عن موافقة المُعذّرين

لَمَّا لم يسمّ فاعله في قبول الأعذار، والفاعل المقصود هو رسول الله ﷺ فحُذف لتعظيمه ﷺ وتنزيهه عن أن يعطيَ موافقته للمخلّفين أو المُعذّرين، الّذين يطلبون القعود بلا عذرٍ مشروع.

سرُّ التَّعبير بالجملة الخبريّة: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ في السّياق:

إظهار ما وصلت إليه نفوس المنافقين، من سفاهة وضلالة

فائدة الجملة الخبريّة هنا؛ إثبات مجيء هؤلاء الأعراب ليأذنَ لهم الرّسول بالقعود والتّخلّف عن الجهاد معه، ليتحقَّقَ من هذا الخبر لازم الفائدة؛ إذ قال: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾، ثمّ أتبعها بقوله: ﴿لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ﴾، فما داموا مُعذّرين فإنّهم سيطلبون الإذن والعُذر عن عدم مصاحبة النّبيّ في الجهاد، فيكون المُخاطب عالماً بمضمون الخبر؛ وهو طلب الإذن، أمّا الفائدة البلاغيّة في هذا الخبر؛ فهي إظهار دنوّ ما وصلت إليه نفوسُهم المريضة، طالبين الاعتذار عن معيّة الرّسول ﷺ ولا يفعل ذلك الفعل إلا مَن تجرَّد قلبه عن الإيمان. هذا إن كان المقصود بهم الكاذبين، أمّا إن أُريد بهم أصحابُ الأعذار الحقيقيّة؛ الّذين استحقّوا إعذارهم في عدم الخروج للجهاد؛ لوجود عذر شرعيّ حقيقيّ، وذلك الأمر يحصل مثيله في الأفعال الجماعيّة.

دلالة (الواو) في: ﴿وَقَعَدَ﴾:

بيانُ فريقٍ آخر قعدوا دون إعلام، النّبيّ ﷺ

جملة: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ عُطفت على جملة: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ وهذا فريق آخر من الأعراب هم خليط؛ فمنهم المسلمون ومنهم المنافقون، قال: ﴿كَذَبُواْ﴾؛ "قرأ الجمهور ﴿كَذَبُواْ﴾ بالتَّخفيف، أي: كذبُوا في أيمانهم. وقرأ الحسنُ في المشهور عنه وأُبيٌّ، وإسماعيل: (كذَّبُوا) بالتَّشديد؛ أي: لَمْ يُصدِّقُوا ما جاء به الرَّسولُ عن ربِّه ولا امتثلوا أمره"[1]. والمراد أنّهم كذبوا في الإيمان

(1) ابن عادل، اللُّباب: 10/169.

الّذي أظهروه من قبلُ، ويحتمل أنّهم كذبوا في وعدهم النّصر، ثم قعدوا دون اعتذار؛ لم يكن تخلّفهم مترقّبًا؛ الّذين اعتذروا قد علم النّبيّ ﷺ أنّهم غير خارجين معه بخلاف الآخرين فكانوا محسوبين في جملة الجيش، فكان تخلّفُهم أشدّ إضرارًا[1].

سرُّ التّعبير بالفعل ﴿وَقَعَدَ﴾:

القعود لفظٌ محوريّ مشتركٌ، جَمَع أصناف المتخلّفين

في قوله: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ شمول فئتين بينهما خصوص وعموم، أو بينهما تفصيل بعد إجمال، ومحور ذلك كلّه (القعود) فيكون المعنى: وجاء المُعذّرون يقصدون القعود عن الجهاد، فمجيء المُعذّرين عامٌّ قد يشتمل على مَن يكذب بعذره أو يَصْدُق؛ ولكنّه لمّا قال: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ فقد أوضح خطورة هذا الصّنف منهم وخصّهم بكذبهم على الله والرّسول. أو هو إيضاحٌ بعدَ إبهام، ولو قال: (وتخلّف الّذين كذبوا) لحصل توهمُ التّخلُّف عن المجيء مع المُعذّرين، وكذلك لو قال: (امتنع)، فأفاد لفظ (القعود) ذلك المعنى دون غيره.

وإيثار لفظ القعود لأنّه من الرُّسوخ واللصوق بالأرض دلالة على التّثاقل عن القتال والتخلّف عنه: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ [التوبة: 90]، ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: 95]، ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 81][2].

الغرض من التّعبير بلفظ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ﴾:

بيان شناعة ما وقع فيه المنافقون، من الكذب والإثم

الاسم الموصول يتّضح معناه إذا وُصِلَ بالصّلة، وفائدة التّعريف هنا بالاسم الموصول في قوله: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ﴾ هو التّعريض،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/293.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (قعد).

ومثاله أيضًا سبق ذكره في سورة التّوبة قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ [التّوبة: 49]، فذكر المنافقين بالصِّلة تعريضًا بشناعة أفعالهم، وليُعلم انحدار شأنهم عند الله. وهذا لا يكون بقولنا: (وقعد الكاذبون)؛ أي: مع استعمال الصّفة دون الاسم الموصول.

دلالة تعدّي الفعل ﴿كَذَبُواْ﴾ بنفسه، وليس بحرف الجرّ:

يُقال: كذب فلانٌ فلانًا؛ أي: أخبره بشيء بخلاف ما هو عليه، وكذب عليه، أي: أخبر عنه بما لم يكن فيه، ففائدة تعدّي الفعل في قوله: ﴿كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بلا حرف جرّ دلالة على عظيم اجترائهم؛ إذ إنَّهم أخبروا رسول الله بخلاف ما هم عليه، ويعلمون أنَّه رسول الله والوحي يتنزَّل عليه.

يكذبون على الله، وهو أعلم بما تُكنُّه صدورهم

سِرُّ التَّصريح بمعمولِ الفعل ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾:

صرّح بمعمول فعل التّكذيب فقال: ﴿كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ لبيان خطورة ما قد أقدموا عليه من شناعة القرار والاختيار، فلا أعظم ولا أشنع ممَّا يفعل هؤلاء، من إثم الكذب على الله سبحانه، وعلى رسوله ﷺ، فصرّح بالمعمول ليُفتضح الأمر ويُعلم كذبهم صريحًا على الله وعلى رسوله، فيحقّ عليهم القول، ويحقّ عليهم العذاب. فقال: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

بيان شناعة الإقدام على الكذب، على الله وعلى رسوله

دلالة الجملة الخبريّة ﴿وَقَعَدَ﴾ في السّياق:

الجملة الخبريّة ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فائدتها إثبات قعود الّذين كذبوا الله ورسوله، وبيان صفةٍ من صفاتهم، لا تحتمل الخطأ، فقد صَدَقَ عليهم وصفُ الكذب على الله ورسوله بقعودهم دون حجّة أو سبب شرعيّ. وذلك من أعظم الآثام الّتي تُورد أصحابها المهالك. وليعلم هؤلاء أنَّ الله قد أحاط بما أكنّوا في أنفسهم وأنَّ رسوله ﷺ قد أخبر بالوحي، فيتحقّق ما يُعرف بلازم الفائدة. وفي هذه العبارة الخبريّة ما فيها من التّقريع بأولئك القوم.

بيان علم الله وعلم رسوله، بخبايا صدورهم

المقابلة بين الجملتين الخبريّتين:

الآية تعرض فريقين مختلفين من المُخلّفين

﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ﴾ إذا كان المُراد بالمعذّرين فريق من المؤمنين الصّادقين من الأعراب، ثمّ ذُكر فريقٌ آخر وهم القاعدون دون عذر شرعيّ يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾؛ فيكون بين الآيتين مقابلة. وهذه المقابلة بين هذين الفريقيْن تعكس ما حصل من إرباكٍ في نفوس بعض النّاس؛ منهم مَن كان يرغب بالجهاد مع رسول الله ﷺ، منعتهم أعذارهم، وقوم آخرون غرّتهم الحياة الدّنيا وكرهوا أن يُجاهدوا معه ﷺ.

دلالة الاستئناف في: ﴿سَيُصِيبُ﴾:

بيان استحقاق الكافرين، عذاب الله الأليم

جملة: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مستأنفة لابتداءِ وعيد[1] وفُصلت عن سابقتها، ففي الجملة الأولى ذكر الله قعود الذين كذبوا الله ورسوله في ذلك الموقف الدُّنيويّ، بينما قال في الجملة الثّانية: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ فصار الحديث عن الآخرة والعذاب الّذي استحقّه الكافرون.

دلالة السّين في قوله: ﴿سَيُصِيبُ﴾:

الوعيد بالعذاب القريب، تخويف للمعذّرين وترهيب

السِّين وسوف يختصّان بالفعل المضارع، وهما حرفا استقبال، وتدلّ (سوف) على أنّ ما بعدها ليس بحاضر[2]، والاستقبال بـ(سوف) فيه بُعدٌ وتراخٍ، وهو أكثر تنفيسًا من السّين[3]، فيكون (السّين) للقريب، و(سوف) للتّنفيس البعيد، فأفاد (السّين) في قوله: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ زيادة الوعيد بقُرب العذاب الّذي سيُصيب الّذين كفروا من هؤلاء.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/293.
(2) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع الفوائد: 11/91 - 92.
(3) الرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/248.

سرّ التّعبير بالإصابة، دون غيره من المرادفات:

دلالـة الإصـابـة عـلى الـتّسـديـد والأخذ

معنى (يصيب) أي: لم يخطئ، تقول: أصاب السّهم الرّميّة: لم يُخطئها، وصوَّب السّهم: وجهه وسدَّدَه[1]. فالتّعبير بالإصابة له دلالته الدّقيقة لِما سيأتي على الكافرين من العذاب. وأنّه واقع بهم لا محالة، فشبّه ما سيأتيهم من العذاب بتصويب السَّهم من الرّميّة. وتأتي (أصاب) بمعنى: أخذ، تقول: أصاب من المال، وهذا المعنى يدلّ على أنَّ العذاب سيأخذ الكافرين لشدّته وإحاطته بهم.

الغرض من التّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

تحقير المتّصفين بـالـكـفـر، والـتّـهـويـن من شأنهم

فائدة التَّعريف بالاسم الموصول في قوله: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هو تحقير هؤلاء المَّتصفين بالكُفر، فذكر الكافرين بالصِّلة لشناعة ما هم عليه من مقام الكُفر، وتحقيرًا لهم وبيانًا لسوء عاقبتهم، وما سيصيبهم من العذاب الأليم. وهذا لا يكون بقولنا: (سيصيب الكافرين)؛ أي: مع استعمال الصّفة دون الاسم الموصول. أو المُراد بالموصول المُصرّون على الكُفر[2].

الغرض من تقديم المفعول به: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

اخـتـصـاص الكافرين بعذاب أليم

تقديم المفعول به: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لفائدة اختصاص الكافرين بهذا العذاب الأليم؛ وكأنّه قد خُلق هذا العذاب لهم خاصّة، فأفاد ذلك تقوية المعنى وتوكيده.

سرُّ التَّعبير بالجارّ والمجرور ﴿مِنْهُمْ﴾:

إصـابـة الّـذيـن كفروا بالعذاب لكُفرهم

"وضمير ﴿مِنْهُمْ﴾ يعود إلى المذكورين فهو شامل للّذين كذبوا اللّه ورسوله، ولِمن كان عذره ناشئًا عن نفاق وكذب"[3] قال ابن عادل: "وإنَّما قال ﴿مِنْهُمْ﴾؛ لأنَّه تعالى كان عالمًا بأنَّ بعضهم

(1) عبد المنعم، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، ص: 197.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/345.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/293.

سيؤمن، فذكر بلفظة (مِنْ) الدَّالّة على التَّبعيض"[1] وذكر الآلوسيّ قوله: أنّ ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من الأعراب مطلقًا؛ وهم المنافقون منهم، أو من المعتذِرين، ووجه التَّبعيض أنَّ منهم مَن اعتذر لكسله لا لكفره؛ أي: سيُصيب المعتذرين لكُفرهم عَذابٌ أَليمٌ؛ وهو عذاب النَّار في الآخرة، ولا يُنافي استحقاق مَن تخلَّف لكسل[2].

دلالة تقديم المجرور ﴿مِنْهُمْ﴾، على الفاعل ﴿عَذَابٌ﴾:

في قوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إسناد الإصابة إلى العذاب، وذلك من قبيل إسناد الفعل إلى غير فاعله، وهذا من المجاز العقليّ بعلاقة المُسبّبيّة، فبسبب كفرهم سيأتيهم العذاب؛ ولأنَّ الله تعالى هو الذي سيُصيبهم بالعذاب، فأسند الفعل إلى العذاب لفائدة قرب العذاب منهم، وشدَّة الإصابة عليهم، وفي ذلك مبالغةٌ في المعنى زيادةً في التّرهيب.

الغرض من المجاز العقليّ، في إسناد الإصابة إلى العذاب

توجيه المتشابه اللّفظيّ، بين آيتي التّوبة، والمائدة:

الآية في سورة المائدة ورد قبلها قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ﴾ ثم أتبعها بقوله: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم أتبعها بقوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فمن سياق الآيات يظهر أنّ الآية تناولت بيانًا لقضية الكفر عند النّصارى؛ إذ إنّهم قد كفروا لقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ﴾، ثم جاء تبيين خطئهم في ذلك، وهو قول المسيح نفسه وبراءته من هذا الكفر، وتوعَّدَ مَن أصرَّ على هذا الكفر بالنّار، ثم بيّن وجهًا آخر

آيات المائدة حِجاجيّةٌ إقناعيّةٌ، وآيات التّوبة مظهرة منطق البراءة من الكفر

(1) ابن عادل، اللُّباب: 10/169.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/345.

من كفرهم فقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾، ثم ردَّ كُفرهم بقوله سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، فالآيات الكريمة موضع حجاج ونقاش وإقناع واستدلال، فقال بعدها: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فذكر المسّ دون الإصابة ترغيبًا لهم في الرّجوع إلى الإيمان والتّوبة عن أقوال الكفر، فقال بعدها: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فبيّن أنّ توبتهم مُرَحَّبٌ بها إنْ عادوا عن الكفر واستغفروا الله، فكان مناسبًا لهذا الحديث أن يذكر المسَّ دون الإصابة؛ لأنّ المسَّ يدلُّ على القِلَّة. أمَّا الإصابة في آية التّوبة قوله: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التّوبة: 90]، فقد عُلمت أحوال كفرهم وردّتهم عن نصرة الدّين، وترك الخروج مع رسول الله ﷺ والجهاد معه، ورضاهم بالقعود مع الخوالف، فناسب هنا الإصابة، لشدّة الموقف؛ إذ لا مقام للمحاججة والحوار والنّقاش حول قضيّة الإيمان والكفر، فهؤلاء قد أَخْفَوا الكفر وأظهروا الإيمان، ثمّ افتُضحوا في قضيّة الجهاد مع رسول الله ﷺ، فناسب ذكر الإصابة دون المَسِّ.

الغرض من تنكير لفظ ﴿عَذَابٌ﴾:

تهويل العذاب، فلا أعظمَ ولا أفظعَ، من عذاب جهنّم

وتنكير ﴿عَذَابٌ﴾ للتّهويل والمراد به عذاب جهنّم[1]. فلا أعظم من عذاب الله يوم القيامة للمنافقين الّذين أظهروا الإيمان، وفي ساعة العُسرة افتضح أمرهم؛ فتخلّفوا وقعدوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ.

سرُّ وصف العذاب بالألم:

العذاب الأليم مناسب لتركهم القتال، مع رسول الله ﷺ

قال: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ دون (عظيم) أو (مهين)؛ وذلك لأنّ المقام يقتضي ذلك؛ لجُبنهم عن أن يصيبهم ضرر الجهاد؛ فكان وصف

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/293.

العذاب بالألم مناسبًا لما يتصوّرونه من الخلاص من آلام القتال؛ قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ﴾ [النّساء: 104]. فإصابة العذاب هي كإصابة السّهم أو الرّمح أو السَّيف في المعركة، وألم العذاب هو كألم تلك الإصابات في المعركة، فناسب ذكر الأليم مع ما يصيب الجرحى في المعارك من آلام.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المجيءُ والإتيانُ:

الفرق بين (جاء فلان) و(أتى فلان): أنّ معنى (جاء فلان)، كلام تامٌّ لا يحتاج إلى صلة، ومعنى (أتى فلان) يقتضي مجيئه بشيء، ولهذا يُقال: جاء فلان نفسُهُ، ولا يُقال: أتى فلان نفسُهُ، ثمَّ كثر ذلك حتّى استعمل أحد اللّفظين في موضع الآخر[1].

المجيء يكون إتيانا من مكان، وقد استعمل أحدهما، في موضع الآخر

و"الإتيان مجيء بسهولة"[2]، وأصل المجيء انحدار، ومن هنا يتّضح مأتى استعمال: (أجاءه إلى كذا)؛ بمعنى: ألجأه واضطره، كأنّه أحدره أو دفعه، إلى المجيء[3]. وعليه فإنّ اختيار لفظ المجيء مناسب لحال هؤلاء المعذّرين من تقديم خطوة وتأخير أخرى، وما في صدورهم من صراع وخوف وقلاقل.

القعودُ، والمُكْثُ:

القُعودُ للعجز، والمكوثُ للانتظار، من أشقّ الأمور على النّفس

استعمل القعود لاشتراكه مع كلمة القواعد بالجذر نفسه، والقواعدُ هنَّ النّساء اللّاتي قَعَدْنَ عن التّزوّج، قال تعالى: ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا﴾ [النّور: 60]؛ وفائدة ذلك مناسبته لما ذكره في الآية السّابقة قوله: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾؛ أي: النّساء. والمُقْعَدُ: مَن قَعَدَ عن الدّيوان ولن يعجز عن

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 152.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 60.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: 1/264.

النهوض لزَمَانَة، والمُقْعَد: كناية عن اللئيم المتقاعِد عن المكارم[1]. أمّا (مكث) فالمُكْثُ: الانتظار. والماكِثُ: المنتظِر[2]. فالمُكْث لم يكن مُرادًا في الآية الكريمة.

الإصابةُ والمسُّ:

الإصابة فيها دلالة على القوّة، وفيه معنى الصّواب وتحقيق الهدف، وأصاب السّهمُ إذا وصل إلى المرمَى بالصَّواب[3]. أمّا المَسُّ فهو كاللّمس، لكنّ اللَّمسَ قد يُقال لطلب الشَّيءِ، أمّا المَسّ فيُقال فيما يكون معه إدراكٌ بحاسّة اللّمس[4].

الاصـــابـــة للـقـوّة، والـمـسّ لـلـتّـحـسُّـس والتّأثّي

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 21.
(2) الخليل، العين: 5/353.
(3) الرّاغب، المفردات: (صوب).
(4) الرّاغب، المفردات: (صوب).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»